الفصل السادس

تحليل البيانات

بعد جمع البيانات بأنواعها وطرقها المختلفة، تبدأ أهم عملية في البحث النوعي وأكثر مراحل البحث جهدا، وفي نفس الوقت أكثرها متعة لكثير من الباحثين، وهي مرحلة التحليل، حيث يقوم الباحث بترتيب بياناته واستنطاقها والبحث في خفاياها وما تحمله من معانٍ. ما هو التحليل؟ وكيف يتم؟ وما هي خطواته؟ وما هي نماذجه؟ ومتى يبدأ ومتى ينتهي؟ جواب هذه الأسئلة وما يتعلق بها سيكون موضوع هذا الفصل.

تحليل البيانات النوعية

عملية التحليل هي أكثر المراحل غموضا وصعوبة في البحث النوعي، فهي مرحلة شاقة خاصة بالنسبة للباحث المبتدئ، بل حتى الباحث المتمرس قد يصاب بشيء من الإحباط عند جمع المعلومات وقبل البدء الفعلي في التحليل، وذلك للكم الكبير والمتنوع من البيانات الذي يتكون عادة لدى الباحث، ولقابلية هذه البيانات للزيادة المستمرة. ولذا تكثر أسئلة الطلاب عن تحليل المعلومات (كيف أحلل؟...) (Hatch, 2002) وذلك لأنه ليس هناك، كما الحال في البحث الكمي، نماذج تحليلية (إحصائية) محددة وثابتة، مثل مقارنة المتوسطات أو الارتباط أو تحليل التباين الأحادي ANOVA أو الاختبار التائي T-test أو نحو ذلك، يسهل الرجوع إليها لتقوم هي عن طريق الحاسب بتحليل المعلومات. وهذا قد يجعل الباحث يحجم عن الإقدام على

البحث النوعي، وقد يسبب نوعا من الإحباط للباحث المبتدئ. ويبدو لأول وهلة أن تحليل المواد المجموعة وتفسيرها واستخراج معانيها أمر شاق. وبسب هذه الصعوبة كثيرا ما يشعر الباحث المبتدئ بأنه لم يحصل على بيانات كافية مما يدعوه للاستمرار في جمع البيانات (Silverman, 2005).فمن المؤكد أن عملية التحليل صعبة ومضنية إذا قيست بعملية التحليل في البحث الكمي، إلا أن هذه المرحلة مع ذلك أكثر المراحل تشويقا خاصة للباحث الخبير وعندما يمتلك الباحث أدوات التعامل مع البيانات، وفيها مجال رحب للإبداع وممارسة الأساليب النقدية، فالباحث الخبير يشعر عادة بمتعة في تحليل بحثه، لا يجدها عادة من يقوم بالبحث الكمي. وفيه تبدأ المعلومات في التعبير عن نفسها وتبوح بأسرارها وخفاياها ويتحدث فيها ما كان ساكتا عندما كانت تلك المعلومات أو البيانات مبثوثة في وضعها الطبيعي.

تحليل البيانات هو بحث منظم عن المعنى المتضمن بالبيانات أو المتعلق بها. وهو طريقة لمعالجة المعلومات والمؤالفة بينها والتعلم منها بحيث يمكن إيصال ما تم تعلمه للآخرين، "فالتحليل يعني تنظيم البيانات وتفحصها بطرق تسمح للباحث أن يرى الأنماط أو يحدد الموضوعات المحورية [التي تتبدى شيئا فشيئا] أو يكتشف العلاقات أو يبني التوضيحات أو يعمل التفسيرات أو يقدم النقد أو يوجد النظريات. وغالبا ما يشتمل على تركيب وتقويم وتفسير وتصنيف وطرح فرضيات ومقارنة وإيجاد أنساق " (Hatch, 2002, p. 148) ويحتاج فيه الباحث دائما أن يُعمل قدرته العقلية ويستثمر خبرته لإيجاد معنى للبيانات النوعية. ويرى (Corbin & Strauss, 2008) بأن التحليل هو عملية إعطاء معنى للبيانات.

فالتحليل عملية نقدية و إبداعية في ذات الوقت، يبرز فيها فكر الباحث وإبداعه وسعة اطلاعه وعمق فهمه لموضوع الظاهرة المدروسة، وقدرته على الربط بين عوامل متعددة في سياق الدراسة. ولذا فالدراسة النظرية لعملية التحليل لا تفيد دون

الانخراط الفعلي في عملية التحليل واكتساب الخبرة من ذلك. ولذلك، وكلما ازدادت خبرة الباحث زاد تحليله عمقا وسعة، وزادت قيمة النتائج التي يتوصل إليها.

والطريقة الوحيدة لفهم عملية التحليل هي ممارسة التحليل والتعود عليه، فكل الكتب والمقالات التي تتحدث عن التحليل، قد تكون مفيدة إلى حد ما، لكنها لا تغني أبدا عن الممارسة الفعلية للتحليل. ولذلك فمقررات البحث النوعي الجامعية عادة تجعل من متطلباتها الأساسية ممارسة التحليل بشكل عملي (Hatch, 2002, p. 54). ويشير (Corbin & Strauss, 2008) إلى أنه من خبرتهما في تدريس البحث النوعي، فقد وجدا أن تعلم التحليل في قاعة الدرس أسهل من تعلمه من خلال كتاب، فأفضل طريقة لتعلم التحليل هو تمضية الوقت في ممارسة التحليل. والقدرة على التحليل لاتتوقف على تعلم التحليل فقط، بل تعتمد أيضا على قدرة الباحث العامة على التفكير المنطقي والتفكير الناقد، وقدرته التصورية وقوة ملاحظته، وسعة اطلاعه، وخبرته في الاستقراء والاستنتاج.

وبالرغم من أن لب البحث النوعي يتركز على التحليل لكن المراجع لاتعطي تفصيلا في هذا الموضوع. وبشكل عام فهذا رأي يتفق عليه كثير ممن كتب في مجال البحث النوعي (Jones, 2007; Hatch, 2002). وقد يكون الاستثناء الوحيد هو طريقة النظرية المؤسسة، حيث هناك تركيز على هذا الجانب (Lichtman, 2010).

وقد يعود السبب في عدم تركيز كتب البحث النوعي على بسط علميه التحليل إلى ثلاثة أسباب رئيسة:

الأول: انشغالها ببسط الأسس النظرية للبحث النوعي وبيان مميزاته، وأوجه الاختلاف بينه وبين البحث الكمي، بالإضافة إلى مناقشة التحديات التي تعرض لها من قبل أنصار البحث الكمي. وبيان مسالك البحث النوعي، بحكم أن الباحث يحتاج

كثيرا إلى هذا لإقناع المؤسسات العلمية ودوائر البحث التي اعتادت على البحث الكمي بمنهجية البحث النوعي وقيمته العلمية وأسسه ومنطلقاته الفلسفية والمنهجية.

الثاني: عدم وجود أساليب محددة وواضحة ومتفق عليها لتحليل البيانات النوعية بين الباحثين (Lichtman, 2010)، بل هي ما عدا الجوانب الإجرائية المعتادة للتنظيم والتصنيف، تخضع لاجتهاد الباحث وعمق تصوره ودقة تفكيره وثقافته وخلفيته العلمية، وحتى الأيديولوجية التي يتمسك بها، فلكل عملية تحليل ذاتيتها الخاصة بها وتميزها، وربما لكل باحث أسلوبه الخاص في التحليل، فالتحليل عملية إبداعية فنية، وغالبا ما يقوم بها خبراء في المجال الذي يكون فيه البحث. ولذلك فبعض من كتب في تحليل البيانات النوعية قد يعتمد على تجربته الشخصية ويعرضها على أنها خيار متاح للتحليل (Charmaz, 2006).

الثالث: أن التحليل فن يعتمد بدرجة كبيرة على تمكن الباحث من الموضوع المبحوث وقدراته الفكرية العامة، والتحليلية وفي وقدرته اللغوية.

لكن مع مرور الوقت بدأت تتكشف من خلال البحوث مسالك متباينة للباحثين يمكن سبرها وتطويرها لتكون نماذج تحليل يسير في إطارها الباحثون، خاصة المبتدئون. وهذا ما فعله هاتش. ومع أنه (Hatch, 2002) حاول التوسع في موضوع التحليل وطرح الكثير من النماذج التي تساعد على التحليل لكنها بالطبع لا تغني عن عمل وفكر الباحث، ويجب أن لا تكون مقيدة بقدر ما تكون موجهة ومساعدة.

خصائص عملية التحليل

تتميز عملية تحليل التحليل في البحث النوعي بأنها تعتمد على الباحث، فتحليل المعلومات عملية ذاتية، لكن الباحث يجتهد في عدم التحيز بما يؤثر على نتيجة البحث، وذلك باعتماده الكامل على البيانات والإكثار منها. كما أنه ملزم ببيان تحيزاته التي قد تؤثر على البحث بشكل صريح.

كما أن تحليل البيانات عملية نامية، فالتحليل لا يكاد يقف عند حد، فكلما أعاد الباحث النظر في البيانات أو تدبر النتائج فغالبا سيكتشف شيئا جديدا، خاصة مع البحوث التي فيها كم كبير ومتنوع وغني من البيانات. ولذلك سيجد نفسه مضطرا لإيقاف البحث عند نقطة ما حتى لو لم يقتنع بانتهاء عملية التحليل بشكل كامل.

وعملية التحليل أيضا تقبل أكثر من طريقة، فقد يسلك باحثان طريقين مختلفين للتحليل ويخرجان بنفس النتائج وقد يتوصل كل منهما إلى نتائج مختلفة. وغالبا ما يكون هذا الاختلاف اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد. لكنه قد يكون اختلاف تضاد إذا تنبه أحد الباحثين إلى بيانات أو دلالات في البيانات غفل عنها الآخر.

تحليل المعلومات

التحليل هو عملية تنظيم وتركيب وتفسير الكم الكبير من المعلومات المجموعة، وهي عملية تتسم بعدم الترتيب وبالغموض واستهلاك الوقت، لكنها لا تخلو من الإبداع والجمال. وهي لا تسير بطريقة خطية وليست مرتبة. وهي في مجملها عملية بحث عن قواعد عامة general statements للعلاقات بين فئات البيانات، وهي تبْني النظرية المؤسسة (Marshall & Rossman, 1999) أو تستخلص وتعرض الخبرة المعاشة.

فالتحليل عملية منظمة للبحث في نصوص المقابلات والملاحظات الميدانية والمواد الأخرى التي جمعت من خلالها البيانات، واستكشافها وتنظيمها لزيادة فهم الباحث لها وليتمكن من تقديم ما اكتشفه للآخرين. ويشتمل التحليل على العمل مع البيانات وترتيبها وتقسيمها إلى وحدات يمكن التعامل معها وتركيبها وإعادة تنظيمها بحثا عن أنماط patterns واكتشاف ما هو المهم وما يمكن أن يستفاد من تلك البيانات. وعملية التحليل تنقل الباحث من ركام البيانات إلى منتج علمي على شكل رسالة علمية أو كتاب أو بحث (Bogdan and Biklen, 1998) .

متى يبدأ تحليل البيانات؟

يشير كثير من الباحثين إلى أنه من المهم البدء بالتحليل مع بداية جمع المعلومات، والبدء المنظم للتحليل مع بداية جمع المعلومات يفيد في تجويد البحث، كما قد يفيد في جمع المعلومات. ومع أن نوعية المعلومات وأسلوب جمعها قد يحدد متى يبدأ التحليل إلا أنه بشكل عام كلما بدأ الباحث في التحليل المبدئي مبكرا كان أفضل، حيث إن ذلك يجعل البيانات أكثر ثراء.

ومما ينبغي التنبيه عليه خاصة للباحث المبتدئ أن يقوم بتسجيل كامل المعلومات المتعلقة بنصوصه التي جمعها وملاحظاته ووثائقه، وتكون المعلومات مفصلة بقدر الحاجة، ولا يعتمد على الذاكرة، أو على أن تلك الأشياء معروفة له، فبنهاية مرحلة جمع البيانات وبداية مرحلة التحليل سيكون لدى الباحث في كثير من الأحيان كم هائل من المعلومات بأنواعها المختلفة ، مما يبعد معه أن يكون قادرا على تذكر السياقات التي وردت فيها تلك المعلومات، فتصعب عليه عملية التحليل. وقد يفيد في هذا البدء بتسجيل الملاحظات الميدانية فور البدء بتسجيل الملاحظات أو المقابلة.

متى ينتهي التحليل؟

يقول هاتش (Hatch, 2002, p. 149):

"ليس من المبالغة القول إن تحليل المعلومات في البحث النوعي لا ينتهي؛ فهناك دائما معلومات أكثر مما يمكن تحليله بشكل كامل، وهناك دائما مستويات أكثر من الفهم يمكن أن تستكشف وقصص كامنة في البيانات أكثر مما يمكن أن يروى، ففي تحليل البيانات، مثل التدريس ، هناك دائما المزيد الذي يمكن فعله. إن معرفة متى يمكن أن يتوقف التحليل حكم محير مثل تقرير متى تبدأ، فلكل دراسة عملتها أغادر ولدي شعور بأنه لم يستخلص إلا جزء مما

في البيانات. وتقريبا لكل رسالة دكتوراه ساعدت فيها الطلاب لإنهائها فقد نصحت الطلاب أن يركزوا على جزء من بياناتهم ويدعوا الباقي ليوم آخر أو تحليل آخر أو مقال آخر أو كتاب."

لكن الشيء المؤكد أنه لا يمكن إيقاف التحليل قبل أن يتوصل الباحث إلى إجابة مُرضية عن أسئلة البحث.

مؤشرات انتهاء التحليل:

مع كل ما سبق، إلا أن هناك مؤشرات يمكن أن يعتمد عليها الباحث لإيقاف عملية التحليل. والمقصود إيقاف عملية التحليل المنظم كمرحلة مستقلة؛ إذ إن التحليل بشكل كامل لا يتوقف إلا بعد كتابة تقرير البحث. وفيما يلي بعض الأسئلة التي تقود أجوبتها إلى مؤشرات على انتهاء عملية التحليل (Hatch, 2002):

- هل كل الحالات الشاذة والبيانات غير المتوافقة تم تفسير أسبابها؟
- هل يمكن توضيح التحليل وتبريره؟
- هل يمكن حكاية قصة متكاملة؟
- هل يمكن تنظيم التحليل على شكل نتائج مكتوبة متلاحمة (نظرية)؟

والسؤال الأهم الذي يجب أن يطرحه الباحث، وإجابته هي المؤشر الرئيس هو: هل ظهرت إجابة مرضية عن سؤال البحث؟

تحديد طبيعة النتائج المتوقعة

عادة لا يستطيع الباحث النوعي أن يحدد بدقة ما الذي سيصل إليه في نهاية بحثه، فليس الأمر كما في البحث الكمي، حيث يكون مع الباحث فرضية يعلم أنه في نهاية البحث إما سيثبتها أو سينفيها. وهذا ما يجعل البحث النوعي صعبا وعليه طابع الغموض قبل بدايته، فكل ما يستطيعه الباحث هو أن يحدد الصيغة التي سيكون عليها

المنتج الذي سيتوصل إليه، فهو يمكن أن يصف النتائج المتوقعة، وصيغة النتائج تأتي غالبا من نوعية البحث (Hatch, 2002, p. 57).

وبشكل عام، ومع احتمال وجود تداخل، فالنتائج يمكن أن تكون على أحد ثلاثة أنواع:

١- وصفية.

٢- تحليلية.

٣- تفسيرية. (Wolcott, 1994)عن (Hatch, 2002) .

فبحث الإثنوجرافي سينتج وصفا وتسجيلا تحليليا لثقافة ما، مثل ثقافة فئة المتعثرين دراسيا في مدرسة ما، أو ثقافة الطلاب في مدارس الأحياء الفقيرة. والتحليل النقدي لظاهرة ما هو ما ستخرج به الدراسات النقدية، وسينتج عنها تفسيرات نقدية وتعرية لدور الهيمنة والسلطة في علاقات مجتمع الدراسة، مثل دور سلطة المعلمين أو مدير المدرسة أو الأغنياء في المجتمع في سن بعض الأنظمة في المدارس. والبحث التاريخي لن ينتج عنه، بشكل أو بآخر إلا تفسيرات تاريخية. وبحث النظرية المؤسسة سينتهي بالباحث إلى أن يبني نظرية للموضوع المبحوث يرى أنها ترتكز على البيانات التي بين يديه. وفي المنظور البنائي سيركز المنتج على الوصف وبناء التفسيرات وتشكيلها بالمشاركة مع المبحوثين. وسينتج البحث الظاهري وصفا ذاتيا لحقيقة وعي المشاركين بالخبرة المعاشة في الظاهرة المدروسة.

فالكثير من أنواع البحث النوعي ستنتج تبصرات ورؤى عميقة يمكن تقديمها بطرق متعددة، تلتقي كلها عند محاولة الوصول لفهم أعمق للظاهرة التربوية من وجهة نظر أقرب للأفراد ذوي العلاقة المباشرة بالظاهرة (Hatch, 2002).

واختلاف منحى التحليل وتنوع مساراته، تعود لاختلاف الخلفية الفلسفية التي ينطلق منها الباحث، والرؤى الفكرية التي توجهه، فالتحليل ما بعد الوضعي سيشتمل على بعض الوصف لكن التركيز الواضح سيكون على التحليل الذي يؤدي لبناء نظرية (Morris, 2006). وحيث إن البنائية الاجتماعية ترى وجود حقائق متعددة للظاهرة نفسها، فالمعنى الذي يمتلكه كل فرد مرتبط بهذه الظاهرة يجب أن يؤخذ في الاعتبار (Raman & Nimmagada, 2006)، ففي المنظور البنائي سيكون التركيز على الوصف وعمل التحليل وبناء التفسيرات بالمشاركة مع المشاركين لبناء الحقيقة. والنقدي النسوي يمكن أن يتضمن بعض الوصف لمنظورات سياسية اجتماعية محددة، وسيكون هناك تتبع وكشف لآثار مراكز القوى بشتى صورها الاقتصادية واللغوية والطبقية وغيرها على التفاعلات الاجتماعية. ولمابعد البنيوية كل شيء بما في ذلك "الحقيقة" ذاتها تفسيرات وعملية بناء مستمرة للمعاني.

بشكل عام، يتم في التحليل البحث عن الأنماط والموضوعات (المحاور) التي تنتج عن البيانات وتنشأ من تعاضدها. والأنماط هي الأشياء المألوفة المتكررة regularities ، وتأتي في عدة صيغ، ومنها:

- المتشابهات وهي الأشياء التي تحدث بنفس الطريقة.
- المتنافرات وهي الأشياء التي تعرف أنها تحدث بشكل مختلف.
- المتكررات وهي ما يعرف أنه يحدث كثيرا أو نادرا.
- المتتاليات وهي ما يعرف أنه يحدث بنظام معين.
- الارتباط وهي ما تحدث مرتبطة بأشياء أو أحداث معينة.
- السببية وهي ما يظهر أنه سبب لشيء آخر.

والموضوعات (المحاور) themes هي مفهومات مدمجة ويمكن تعريفها بأنها عبارة تصف معنى يجري أو ينساب في كل أو أغلب البيانات ذات العلاقة أو يتخللها. ويمكن التوصل لهذه الموضوعات من خلال طرح سؤال: ما هي العبارة العامة التي يمكن أن توضع لتجمع أو تنظم بشكل ذي معنى ومعبر كل هذه المعلومات؟ (Hatch, 2002). فالمحور أو الموضوع المحوري موضوع تشترك فيها جملة من البيانات، وتتعاضد في إبرازه أثناء التحليل.

مستويات التحليل:

ويحدد كيرني (Kearney, 2001, p. 149 عن Jecelon & O'Dell, 2005[1]) خمسة مستويات من التحليل (نتائج التحليل).

الأول: التحليل النوعي لبيانات جمعت بناء على إطار معد سلفا. وفي هذه الحالة يتم التحليل وفقا لمجموعة من الأفكار الموجودة، أو لإطار محدد أو قالب. ويذكر كيرني أنه ليس هناك إلا القليل من الأفكار أو الاكتشاف في هذا النوع من البحث، بل غالبا ما يجد الباحث ما كان يبحث عنه ويتوقعه قبل البحث. والسبب في ذلك أن الباحث يطبق نظريات موجودة على محاولة المشارك (المبحوث) الإفصاح عن رأيه، وبعبارة أخرى أن الباحث يصب البيانات التي لديه في القوالب المعدة سلفا. وفي هذه الحالة غالبا ما يكون البحث سطحيا ولا يضيف جديدا. وغالبا ما يقع في هذا إما الباحث الجديد أو الباحث الذي ينطلق من تصور وضعي بحت.

الثاني: البحث الوصفي. وفي هذه الحالة يقوم الباحث ببناء سلسلة من مجموعات البيانات المصنفة تحت عناوين محددة، فالمجموعات محددة لكن التحليل لا يتضمن العلاقات بينها. وهذا النوع من النتائج قد يكون مفيدا في إيجاد قائمة من الأوصاف أو المحددات عن موضوع معين.

---

(١) وفيه كلام جيد عن عملية التحليل..

الثالث: هذا النوع من تحليل البيانات يهدف إلى بناء مزيج من الخبرة أو العملية process. فالباحث يحاول أن يدمج المحاور themes بشكل منطقي، مثل أن يحاول الباحث أن يوضح كيف تغير مفهوما أو إجراءًا مع مرور الوقت.

الرابع: هذا النوع من التحليل يضيف مزيدا من التعقيد عارضا تنوع ظاهرة بين الناس أو عبر مواقع متعددة.

الخامس: وهو التحليل الأكثر عمقا وجودة يخرج منتجا عبارة عن تمثيل أو وصف evocation لفهم خاص بوضع معين متعدد الأوجه وظاهرة إنسانية متنوعة في وضع فريد. وهذا بحسب (Kearney, 2001) هو أفضل أنواع التحليل ويتطلب بيانات واسعة وعميقة عن الظاهرة موضع البحث.

وبحسب موريس (Morris, 2006, p. 104) يسلك الباحثون في تحليل البيانات توجيهين عامين:

الأول: من الأعلى للأسفل. وعادة ما يستخدم كإطار لكل البيانات الكيفية وهو مستقر/ نابع من rooted في علم اللغة والإثنوجرافي. وهذا التوجه في التحليل يجب أن يستخدم عندما يكون الباحث يبحث عن أنساق/ أنماط أو يصف عمليات.

الثاني: من الأسفل للأعلى. وهو توجه في تحليل البيانات النوعية، يظهر الإطار من خلاله من البيانات. وهذا التوجه مستقر في دراسات علم الاجتماع، ويجب أن يستخدم عندما يكون الباحث راغبا في بناء نظرية حول موضوع محدد.

الحساسية النظرية

الحساسية النظرية Theoretical sensitivity مفهوم قدمه جلاسير (Glaser, 1978) وتوسع في بيانه كوربين وستراوس (Corbin & Strauss, 2008). ويعني هذا المفهوم قدرة تتكون لدى الباحث يستطيع من خلالها التعرف على الجوانب المهمة من

البيانات والنفاذ إليها وبناء المعاني منها، بعبارة أخرى سبر الأجزاء من البيانات ذات الدلالة المتعلقة بالبحث والتركيز عليها. فالحساسية النظرية هي القدرة على معرفة ما هو المهم في المعلومات وإعطاؤها معنى (Hitchcock & Hughes, 1995, p. 298)، ما يزيد من قدرة الباحث على من بناء نظرية عميقة من البيانات التي يحصل عليها. ويسوق ستراوس وكوربن أربعة مصادر للحساسية النظرية:

- الاطلاع الناقد على الأدبيات ذات العلاقة بموضوع البحث والتعمق فيها.
- التجربة والخبرة المهنية، وذلك من خلال عمل الباحث السابق في مجال موضوع البحث، أو قيامه ببحوث ذات علاقة بالموضوع.
- التجربة والخبرة الشخصية، وهي الخبرات الشخصية التي يمر بها الباحث في حياته الشخصية مما يتعلق بموضوع البحث، مثل أن يتعرض الباحث لفقد قريب عزيز لديه، فيكون لديه حساسية نظرية في موضوع آثار فقد الآباء.
- العملية التحليلية ذاتها، فجمع المعلومات المناسبة والكافية والتبصر فيها وطرح الأسئلة حولها وبناء المقارنات وضرب الأمثلة وفرض الفرضيات يساعد في بناء الحساسية النظرية (ستراوس وكوربين١٤١٩، ص ٤٣).

وبحسب ستراوس وكورين (١٤١٩) يمكن تحقيق ذلك من خلال الآتي:

١- طرح الأسئلة للتحقق من دلالات البيانات.

٢- البقاء في موقف الشك نحو الفئات أو الفرضيات التي تظهر من بداية البحث والتحقق منها مرارا بواسطة البيانات.

٣- اتباع إجراءات جمع البيانات والتحليل المتعارف عليها.

ومن المؤكد أن من أهم ما يميز البحث النوعي الجيد قدرة الباحث على التنبه إلى المعلومات الدقيقة وغير العادية، فهي في الغالب تصنع الفرق بين المعاني، فالوصف العام لأي ظاهرة أو سلوك يشترك فيه كل الباحثين، لكن يتميز الباحث

الخبير بالقدرة على الغوص على ما دق من البيانات وبناء الفروق وتطوير النظرية اعتمادا عليها.

مراحل تحليل البيانات

تمر عملية تحليل المعلومات بعدد من المراحل تبدأ من تنظيم البيانات لتسهيل الوصول لها، إلى كتابة نتائج البحث (أو تقرير البحث). وتتنوع آراء الباحثين في تقسيم هذه المراحل، وتختلف أساليبهم في التحليل، وتختلف تسمياتهم لها بشكل قد يحدث إرباكا للقارئ.

وبشكل عام تمر عملية تحليل البيانات بثلاث مراحل أساسية (Silverman, 2005, p. 177).

١- اختصار البيانات

٢- عرض البيانات

٣- استخلاص النتائج والتحقق منها.

وهذه المراحل قد تكون متداخلة أو متزامنة، وليس بالضرورة منفصلة ومتمايزة، ولذلك يطلق عليها بعض الباحثين أنشطة وليس مراحل.

ويرى ستراوس وكوربين (Corbin & Strauss, 2008) أن عملية التحليل بشكل عام يجب أن تمر بمرحلتين:

الأولى: التحليل الدقيق

الثانية: والتحليل العام.

ففي التحليل الدقيق والذي يتم في بداية مرحلة التحليل يتم النظر إلى البيانات بشكل تفصيلي والتوقف عند كل معلومة صغيرة. وذلك بهدف القرب من البيانات والغوص فيها وتوسيع الأفق والتحرر من الأطر مسبقة التركيب التي دخل بها الباحث

لبحثه. ثم بعد ذلك تأتي مرحلة التحليل العام، حيث يبدأ الباحث في النظر بشكل أعم للبيانات التي لديه باحثا عن أنساق وأنماط أكثر تجريدا. ويتأكد هذا النمط من التحليل عند رغبة الباحث في بناء النظرية.

وترى (Meriam, 2009) أن عملية البحث يجب أن تبدأ بتحديد "قِطع" البيانات التي تستجيب لأسئلة لبحث أو تكون ذات علاقة بها، بحيث تكون جوابا محتملا أو جزءًا من جواب لسؤال أو أسئلة البحث.

ومن خلال التتبع يمكن تحديد عدد من المراحل الأساسية التي يمر بها عادة أغلب الباحثين، وهي: تنظيم البيانات، وتصنيف البيانات، وتسجيل الملاحظات، وتحديد الأنساق والأنماط، صياغة النتائج، التحقق من النتائج، وأخيرا كتابة تقرير البحث. وسوف نتحدث بشيء من التفصيل عن هذه المراحل.

١ – تنظيم البيانات

في هذه المرحلة يكون لدى الباحث عادة كم كبير من البيانات، أمضى في جمعه مدة زمنية طويلة، ما بين مقابلة وملاحظة ووثائق وغير ذلك. كما أن لديه كمًّا من الملحوظات الأولية التي سجلها أثناء جمع المعلومات. هذه المعلومات تحتاج إلى تنظيم وترتيب يساعد في الرجوع لها بشكل سريع، وعلى التعامل معها بشكل ييسر تحليلها. وليس هناك نمط تنظيم واحد، بل يمكن للباحث أن ينظم البيانات بالشكل الذي يراه مناسبا، فيمكن تصنيفها حسب طريقة جمع المعلومات (الملاحظة أو المقابلة أو الوثائق)، ويمكن تصنيفها على حسب الأفراد الذين أجري عليهم البحث، أو غير ذلك بما يراه الباحث ملائما له وللأسلوب الذي سينتهجه في التحليل. ويمكن أن يتم هذا التنظيم بشكل يدوي، عن طريق وضعها في ملفات، أو يمكن الاستفادة من الحاسب في تصنيفها وفهرستها. وهناك برامج حاسوبية مخصصة للبحث النوعي تساعد على عمليات تنظيم البيانات وتحليلها. (وسيتم الحديث عنها لاحقا).

٢- تصنيف البيانات (coding)

في القراءة الأولية للبيانات يبدأ الباحث في تسجيل نظام تصنيف يسير عليه أثناء التحليل. وبعض الباحثين يسمي هذا النوع من التصنيف (التصنيف المفتوح)، وقد يسمى (التصنيف الوصفي). وأسئلة البحث عامل أساس في تحديد وتوجيه نظام التصنيف. وهذا النوع من التصنيف هو عبارة عن إعطاء عناوين للمعلومات التي تحتويها البيانات المجموعة. وهذه الجزئيات قد تكون كلمة أو عبارة أو جملة أو فقرة كاملة، فهذا التصنيف يكون عنوانا أو اسما لتلك الجزئيات التي يرى الباحث أنها ذات معنى في بحثه.

وتصنيف البيانات في هذه المرحلة يتم بطريقتين:

الأولى: التصنيف المسبق، بحيث يكون لدى الباحث هيكلة للتصنيف، ويقوم بترميز البيانات بما يتوافق مع ذلك التصنيف.

الثانية: التصنيف الجديد، بحيث يمر الباحث على البيانات جملة جملة ويعطي لكل جملة عنوانا أو ترميزا بحيث يبني بعد الانتهاء من الترميز هيكله التصنيفي.

والبرنامج الحاسوبي عادة يوفر الترميز بالطريقتين.

وهناك عدد من الخيارات لهذا التصنيف، فمن الباحثين من يرى أن يكون التصنيف على مستوى السطر، بحيث يكون السطر هو وحدة التحليل، فيُعطى لكل سطر عنوانا، أو رمزا. والهدف من هذا هو أن يتأكد الباحث أنه لم يفته شيء من البيانات، وكذلك لتبقى كل البيانات أمامه فقد يكتشف في مراحل متقدمة ارتباط بعض الأسطر التي استبعدها بالتحليل ومناسبتها لها. ومنهم من يرى أن يكون على مستوى الفقرة، ومنهم من يرى أن يكون على الجزئية ذات العلاقة. وعلى أي خيار فإن أصغر وحدة للتحليل تسمى عادة الجزء segment أو القطعة.

٣- تسجيل الملاحظات (memoing)

بعد هذا التصنيف، يجب أن يعيد الباحث القراءة ويسجل ملاحظاته بعد أن استقر في ذهنه هيكل مبدئي لهذا النظام التصنيفي، أي بعد أن أعطى عنوانا مميزا لكثير من جزئيات البيانات التي لديه، وبدأت تظهر لديه نقاط تمثل معالم، وإن كانت باهته، لمعانٍ في بداية التكون، لم تكن ظاهرة عند الجمع الأولي للمعلومات. وتكون هذه الملاحظات على شكل أسئلة تؤدي إلى مزيد من البحث سواء في المعلومات المتوفرة أو للبحث عن معلومات إضافية، أو على شكل وقفات تحليلية وتسجيل علاقات بين الفئات التي وضعت، لكنها تحتاج إلى تحقق. وكلما تكررت القراءة زاد احتمال اكتشاف شيء جديد في البيانات، ولذا فإن الباحث يجب أن يكثر من قراءة بياناته ولا يكتفي بالقراءة أو القراءتين. وفي هذه المرحلة يستطيع الباحث أن يحدد ما إذا كانت العينة التي حددها كافية وتفي بغرض البحث أم لا، فكلما كثرت الأسئلة دون إجابات أو تعذر بناء نظام تصنيفي جيد ومتماسك كان ذلك مؤشرا على نقص العينة والحاجة لمزيد من البيانات. وهنا على الباحث أن يعود لموضع بحثه ويبحث عن معلومات إضافية.

والملاحظات هنا ليست ملاحظات مختصرة وعابرة بل هي ملاحظات تحليلية قد تطول لتصل لصفحات، وهي في النهاية تمثل لبنات التحليل الكلي النهائي للبيانات (Charmaz, 2006).

٤- تحديد الأنساق والأنماط

تحديد الأنساق والأنماط نوع من التصنيف، لكنه يكون على مستوى أعلى من التجريد، ولذا قد يسميه بعض الباحثين التصنيف أو الترميز المحوري axial coding ؛ لأنه يجعل الفئات تدور على محور واحد، وقد يسميه آخرون أسر الترميز coding

families ؛ لأنه يجمع عددا من الفئات في أسرة واحدة. وقد يسمى التصنيف الاستنتاجي (في مقابل التصنيف الوصفي)، فبعد أن يتم التصنيف المفتوح، ويتم وضع الملاحظات عليها تعاد قراءة البيانات المصنفة، لتصنف الفئات مرة أخرى على شكل أنماط وأنساق في مستوى تجريدي أعلى من التصنيف المفتوح الذي هو عبارة عن عناوين لجزئيات المعلومات. وهذا النوع من التصنيف يحتاج إلى تفكير عميق وقراءة متأنية والانفتاح الذهني على عدد من الخيارات، لإيجاد علاقات وعمل مقارنات بين مجموعات البيانات، بحيث يحدد الباحث ما هي الأنماط والأنساق التي تكونت من تصنيف البيانات، ويبدأ في ضم بعضها لبعض والمقارنة بين تلك الأنساق والأنماط.

٥- صياغة النتائج

بعد تكوُّن الأنماط والأنساق يحتاج الباحث إلى الترقي قليلا في التجريد، ليصوغ تلك الأنماط والأنساق على شكل نتائج للبحث، تدعمها الأنساق التي ظهرت وتشكلت من خلال التصنيف الأساسي المفتوح، وبعض الباحثين يسمي هذه المرحلة التصنيف الانتقائي، وذلك لأن الباحث يختار في عملية التصنيف هذه ما يتناسب مع أسئلة بحثه، وربما يدع ما سوى ذلك. والنتائج في هذه المرحلة تبقى على شكل افتراضات.

وما يجب التنبه له أن الباحث المبتدئ قد يجد نفسه مدفوعا للقفز لنتائج مقررة لديه سلفا أو معروفة بالحدس، لكن يجب عليه مقاومة هذا الإغراء، والتعمق في دراسة البيانات وتحليلها بشكل دقيق، حتى لو بدا له ذلك غير ضروري، ولو صرف وقتا طويلا في تحليل البيانات، فهذا الوقت ليس ضائعا بل سيعود بفائدة على عمق التحليل وجودة النتائج.

٦- التحقق من النتائج

في هذه المرحلة يعود الباحث لقراءة بياناته، وربما عاد للدراسات السابقة وأدبيات موضوع الدراسة وتوسع في ذلك، للتحقق من النتائج التي توصل إليها، ومناقشتها، وتعديل ما يرى تعديله أو بيان رأيه فيها. وهو في هذه المرحلة يتأكد من أن ما توصل إليه بعد عمليات التصنيف المختلفة لا يوجد في البيانات الأساسية ما يناقضه، أو يجعله يعيد النظر في الافتراضات التي توصل إليها. وعلى عكس ما هو موجود في البحث الكمي، يجب أن يكون التركيز على الدراسات السابقة وأدبيات الموضوع في هذه المرحلة، وليس قبل البحث، حتى لا تؤثر على آراء الباحث، وأسلوبه في التحليل. والتحقق في هذه المرحلة ليس مثل التحقق في البحث الكمي، حيث يدخل الباحث بفرضيات يريد أن يختبرها، فالافتراضات في البحث النوعي إنما خرجت من عملية التحليل وليس قبله، وعملية التحقق منها إنما هي في الواقع جزء من عملية التحليل. وهذه المراحل من التحليل تغلب على توجه النظرية المؤسسة حيث إنه في الغالب يؤدي إلى الخروج بنظرية.

ويرى لنكن وجوبا (Morris, 2006, p. 225) أن عملية تحليل البيانات تسير عادة في ثلاث خطوات رئيسة.

الخطوة الأولى: تحديد "وحدات" المعلومات داخل الوصف السردي. وللوحدة صفتان:

أ) يجب أن تكون تأويلية heuristic (مرتبطة بفهم أو إجراء في موقع البحث ومنطقة تركيزه).

ب) ويجب أن تكون أصغر معلومة يمكن أن تقف لوحدها تكون ذات معنى وممكنة الفهم دون توضيح إضافي.

وكل وحدة يجب أن تسجل بشكل مستقل وترمز، مع تسجيل المعلومات الموضحة لها مثل: المصدر، الزمان المكان الذي جمعت فيه المعلومة.

وبعد بناء الوحدات، تأتي الخطوة الثانية وهي جمع الوحدات في فئات، فيعود الباحث إلى الوحدة الأولى ويراجعها ثم يعطيها رقما، مثل (١)، ثم يراجع الوحدة الثانية ويقرر ما إذا كانت تشبه الأولى فيعطيها نفس الرقم (١)، أو تختلف فيعطيها الرقم التالي (٢). ويعمل الشيء نفسه مع جميع الوحدات، ويخصص فئة باسم (متفرقات) ويعطيها رقما، للوحدات التي لا تندرج تحت فئة معينة. وعملية التصنيف والتبويب هذه تبني الفئات بدل أن تبحث عن تكرارات لنفس الفئة. والسؤال الرئيس للباحث البنائي أثناء التحليل هو (كيف تثري هذه الوحدة هذه الفئة؟)، أي تؤثر في المعنى. بينما السؤال الرئيس في البحث بعد الوضعي هو (كم تكررت هذه الوحدة؟). فبالنسبة للباحث البنائي السياق مؤثر رئيس يغني ويثبت صحة الذاتية. وهو كما لو كان الباحث البنائي يبني العظام والعضلات والدم والجلد لفرد مستقل ومتفرد، بينما يقوم ما بعد الوضعي يبحث عن الهيكل العظمي المشترك لدى كل فرد. وتؤكد (Morris, 2006) أن كلا من التحليلين البنائي والوضعي ذوا مصداقية وصحيحان، لكن لكل منهما هدف تحليلي مختلف.

الخطوة الثالثة: هي البحث عن العلاقات بين الفئات. وهذه العلاقات ليست عبارات تتنبأ بالعلاقات المتكررة بين الفئات، لكنها جسور بين الفئات تبني هياكل/ بُنى construction أكثر اكتمالا.

وعملية التحليل عملية متداخلة المراحل، وتستمر إلى آخر لحظة في كتابة تقرير البحث؛ فكتابة التقرير إنما هي نوع من المراجعة والتأمل لعملية التحليل. ولذا يشير بعض الباحثين في البحث النوعي إلى أن البحث النوعي ليس له حد ينتهي عنده،

خاصة عندما يكون موضوع البحث كبيرا ومعلوماته غزيرة والباحث خبيرا فيه. فلا بد من وضع حد يقرر الباحث أن ينتهي عنده البحث.

ومن الخطأ، الذي قد يقع فيه الباحث الجديد، القول بأنه قد حلل بياناته مستخدما برنامج كذا وكذا للتحليل النوعي ، مثل ما يقوله الباحث الكمي مع برامج التحليل الإحصائي، لكن هذا غير صحيح، فالبرنامج في البحث النوعي يجمع البيانات ويساعد في تصنيفها وسرعة استعادتها، لكنه لا يقوم بالتحليل، بل الذي يحلل هو الباحث، ولا سبيل غير ذلك.

نماذج التحليل في البحث النوعي

اقترح هاتش (Hatch, 2002) أربعة نماذج لتحليل البيانات في البحث النوعي، مع تأكيده على أنها غير ملزمة للباحث، ولا يرى ضرورة التقيد بها، بل يرى أنها أمثلة يمكن أن تحاكى، وما هي إلا نقطة بداية، ينطلق منها الباحث، لكنها ليست ملزمة له.

التحليل الطبولوجي

التحليل الطبولوجي هو تقسيم كل ما يلاحظ إلى مجموعات أو فئات بناء على قاعدة معينة لتفصيل الظاهرة موضع البحث. "وهذا يعني بداية التحليل بتقسيم البيانات إلى مجموعات بناء على معالم [وسمات] مسبقة، [كعلامات الأرض الطبيعية للخريطة الجغرافية]. وهذه المعالم تستمد من النظرية والحس العام وأهداف البحث، والمعالجة الأولية للبيانات داخل هذه المعالم ... وهذا يختلف عن التحليل الاستقرائي، ففي التحليل الاستقرائي تظهر الفئات (المجموعات) من تحليل مجموعة البيانات بشكل كامل، بينما في التحليل الطبولوجي تتم قراءة أولية للبيانات وتقسم إلى عناصر بناء على مجموعات محددة سلفا" (Hatch, 2002, p. 152).

فالتحليل الطبولوجي هو التحليل الذي يقوم فيه الباحث بتحديد معالم لأرضية ظاهرة البحث، وهو عبارة عن الفئات الرئيسة التي يفترض أن تقع فيها بيانات البحث، فهي مثل المعالم التضاريسية للأرض [من خلال البيانات]، فالبحث عبارة عن أرض وهذه الموضوعات والمجموعات هي تضاريس البحث، أو معالم أرضيته. فيبدأ الباحث في التفكير في موضوع بحثه وأسئلته ويلقي نظرة سريعة على بياناته ثم يحدد المناطق التضاريسية لبحثه التي هي الموضوعات الفرعية فيه.

ويقترح هاتش (Hatch, 2002) الخطوات التالية للتحليل الطبولوجي:

١- تحديد المَعلم الذي سيتم التحليل بناء عليه، ففي دراسة لهاتش عن العلاقة بين معتقدات المعلمين وممارساتهم، كانت الطبولوجية المنطقية هي (المعتقدات) و (الممارسات)، وقد يدخل في ذلك (أهداف المدرسة) (تنظيم الفصل).

٢- قراءة البيانات وتحديد المدخلات المرتبطة بالمعالم. يرى هاتش أن تتم القراءة للبيانات وفي الذهن منطقة طبولوجية واحدة (معلم واحد).

٣- قراءة المدخلات في كل مَعلم وتسجيل الأفكار الأساسية في المدخل على صفحة ملخص. في هذه المرحلة تعاد قراءة ما في داخل المعلم ويوضع ملخص له.

٤- البحث عن أنماط وعلاقات وموضوعات داخل المعلم.

٥- قراءة البيانات وتركيز المدخلات بناء على الأنماط المحددة ووضع قائمة بالمدخلات وما تتناسب معه من عناصر الأنماط.

٦- تقرير ما إذا كانت الأنماط مدعومة من البيانات، البحث في البيانات عن أمثلة مناقضة للنمط.

٧- البحث عن علاقات بين الأنماط المحددة.

٨- كتابة الأنماط في تعميم من جملة واحدة (التعبير عن الأنماط على شكل تعميم من صيغة واحدة).

٩- اختيار اقتباسات من البيانات تعزز التعميم الناتج.

التحليل الاستقرائي

يتميز البحث النوعي باعتماده وتركيزه على المعالجة الاستقرائية للبيانات، كما سبق بيانه. وحتى التحليل الطبولوجي الذي يبدأ بشكل استنتاجي (غير استقرائي) يعتمد على التفسير الاستقرائي في كثير من خطواته. وهذه التسمية (الاستقرائي) هي لنموذج خاص في التحليل وليست هي المنهج الاستقرائي العام الذي ينتهجه البحث النوعي بشكل عام.

يسير التحليل الاستقرائي من التفاصيل إلى الكل أو العموم، فالمعنى (أو الفهم) يتكون من خلال البدء بالجزئيات وتكوين ارتباطات (وعلاقات) بينها، فعن طريق جمع عدد من الأنساق والأنماط بشكل كاف يمكن للباحث أن يصوغ المعنى المتكون من هذا المجموع على شكل تعميم، فمثلا في بحث لتحليل مناهج بريطانيا والصورة التي تكونها عن العرب، لاحظ الباحث تكون نمط أو نسق في كثير من الكتب، وذلك أنه كلما ورد ذكر للعرب أو المسلمين كان ذلك في سياق الحروب والصراع والإرهاب، بينما لا يكاد يوجد لهم ذكر في غير ذلك. وقد تكرر ذلك في كتب التاريخ وكتب الدين وغيرها. هذه الجزئيات ربما لو أخذت على شكل أفراد لم يكن لها مغزى كبير، لكن يمكن أن تستقرأ وتجمع وتوضع في سياقها فيصل الباحث منها إلى نتيجة مفادها أن هناك ربطا غير مباشر بين العرب أو المسلمين وبين حالة الحرب والنزاع.

وهذا المنهج الاستقرائي يخالف الطريقة المتبعة عادة في البحث الكمي (القائم على التوجه الوضعي) الذي يبدأ بالانطلاق من النظرية بفرض الفرضيات ثم اختبارها اعتمادا على الأرقام دون النظر بعمق إلى نوعية المعلومات التي تحت تلك الأرقام. وتعتبر النظرية المؤسسة أكثر أنواع البحث النوعي توسعا في استخدام النموذج الاستقرائي والاعتماد عليه.

ويقترح هاتش (Hatch, 2002) نموذجا يرى أنه أكثر مرونة من النماذج المستخدمة في النظرية المؤسسة ويمكن استخدامه بعد تعديله في أنواع مختلفة من البحث النوعي.

خطوات التحليل الاستقرائي:

١- قراءة البيانات لتحديد أطر التحليل.

٢- إيجاد مجالات بناء على العلاقات المعنوية المكتشفة داخل أطر التحليل.

٣- تحديد المجالات المهمة وتعيين رمز لها وإبعاد الأخرى.

٤- قراءة البيانات مرة أخرى واختيار المجالات المهمة وتسجيل أين وجدت العلاقات في البيانات.

٥- تقرير ما إذا كانت المجالات مدعومة بالبيانات، والبحث في البيانات عن أمثلة لا تتناسب مع تلك العلاقات أو تخالفها في المجال.

٦- استكمال التحليل في المجال.

٧- البحث عن موضوعات محورية themes في المجال.

٨- إيجاد خطوط عامة رئيسة توضح العلاقات داخل المجال وبين المجالات.

٩- اختيار مقتبسات من البيانات تؤيد عناصر الخطوط العامة.

التحليل التفسيري

سبق الحديث عن أن التفسير يُعد صبغة عامة أساسية في البحث النوعي، بل إن بعض الباحثين يميل إلى تسمية البحث النوعي بالبحث التفسيري. لكن هاتش يستخدم هذه التسمية لأن طابع التحليل في هذا النوع من البحث يغلب عليه الطابع التفسيري.

التفسير إعطاء معنى للبيانات من خلال ربطها ببعضها والنظر لها من زوايا مختلفة واكتشاف العلاقات بينها، وهو يدور حول إيجاد معنى ومحاولة فهم للأوضاع

الاجتماعية بتوليد توضيحات لما يجري فيها وعدم الاكتفاء بالنظرة السطحية. وفيها يتم عمل الاستنتاجات وبناء الرؤى العميقة (الاستبصارات) وربط الفعل بالمغزي وتوضيح الفهم واستخلاص النتائج والدروس.

ويرى (Eisner, 2003) أن التفسير يتعلق بالإحساس بالمعنى، فهو يحاول أن يوضح ما معنى موقف معين أو خبرة معينة، وما دلالاتهما، وما الذي يريد أن يبرزه الموقف؟ وكيف يمكن توضيحه؟ وما الأفكار النظرية التي تساعدنا على فهم السلوك أو الفعل الذي حدث؟ وهل هناك تفسيرات أخرى محتملة؟ وهل هذه التفسيرات متناقضة، وإن كانت كذلك هل يمكن إيجاد تفسير لذلك؟ أم أنها تفسيرات متنوعة فحسب. ويضيف أن القدرة على تقديم تفسير ذي مصداقية يتطلب الإحاطة بالسياق الذي يكتنف الفعل، فالسلوك دائما موضعي. فالموضع مكوِّن من مكونات إطار التفسير. ويؤكد أنه هناك دائما أكثر من أسلوب لرؤية شيء معين وتفسيره، فالإحساس والأطر المرجعية والسياق والإطار النظري تترابط منطقيا في بناء تفسير معين. ويضاف لذلك أيضا الخلفية الثقافية للمفسر، ومدى قربه وبعده من الظاهرة.

خطوات التحليل التفسيري

يقترح هاتش الخطوات التالية للتحليل التفسيري:

١- قراءة البيانات لتكوين إحساس بالكل.

٢- مراجعة الانطباعات التي سبق وسجلت في يوميات البحث والبروتوكولات المحجوبة وتسجيلها في مذكرات memos.

٣- قراءة البيانات وتحديد الانطباعات وتسجيل الانطباعات في مذكرات.

٤- دراسة المذكرات للبحث عن تفسيرات مهمة /ذات مغزى.

٥- إعادة قراءة البيانات مع ترميز الأماكن التي يتم فيها دعم التفسيرات أو تحديها (تفحصها).

٦- كتابة مختصر للمسودة الأولية.

٧- مراجعة التفسيرات مع المشارك (المبحوث).

٨- كتابة مختصر مراجع وتحديد اقتباسات تؤيد التفسيرات.

التحليل المتعدد الأصوات Polyvocal analysis

لا يرى هاتش التحليل المتعدد الأصوات سوى مكانا للبدء لعمل نوع محدد من التحليل مابعد الحداثي. والتحليل متعدد الأصوات نوع من التحليل يتماشى مع فرضيات ما بعد البنيوية، ولا يقصد به أن يكون إلزاميا، بل هو نموذج مقترح. ويؤكد هاتش على أن من أراد أن يسير مع هذا النموذج ويعتنق التوجه ما بعد البنيوي فيجب أن يوطن نفسه على المفارقة. وفي التوجه ما بعد البنيوي هناك ثلاثة أنواع من الاستكشاف أو البحث: التفكيكية كما عند ديريدا، والنسَبية genealogy كما عند فوكو، والثالث ما يسميه هاتش الدراسة القائمة على البيانات data-based study. والتحليل متعدد الأصوات يركز على هذا النوع.

فالتحليل المتعدد الأصوات طريقة قائمة على البيانات تناسب فرضيات التفكير مابعد البنيوي خاصة مقولة تعدد الحقائق وأنها دائما جزئية ومحلية وتاريخية... فالتحليل متعدد الأصوات يتحدث بأصوات متعددة ويحكي قصصا متعددة. ... وبناء مثل هذا النص (التحليل) يعني إيجاد طرق للإنصات للأصوات المتعددة وتحسسها وتتبعها في البيانات وتجريب عدد من الطرق لحكاية قصص تلك الأصوات في نتائج البحث (Hatch, 2002).

خطوات التحليل متعدد الأصوات

يسوق هاتش الخطوات التالية للتحليل متعدد الأصوات:

١- قراءة البيانات لتكوين إحساس بالكل أو بالصورة الكاملة.

٢- تحديد كل الأصوات التي تسهم وتشارك في البيانات بما فيها صوت الباحث.

٣- قراءة البيانات وتحديد الأماكن التي يسمع منها صوت معين.

٤- دراسة البيانات المرتبطة بكل صوت وتحديد أي الأصوات سيضمن في التقرير، وكتابة سرد يروي قصة كل صوت اختير.

٥- قراءة جميع البيانات بحثا عن بيانات تطور أو تعدل القصص.

٦- عند الإمكان، تؤخذ القصص للمشاركين فيها بحيث يمكن أن يوضحوها.

ويضيف هاتش نموذجا خامسا أسماه التحليل السياسي، وربطه بالتوجه النسوي والتوجه النقدي. والمتأمل له يرى أنه لا يخرج عن النماذج السابقة من حيث أسلوب التحليل، إلا أنه يركز على تتبع بؤر القوى والسيطرة في المجتمع بصورها المختلفة والكشف عن آليات عملها وتأثيرها.

ومن المؤكد أن هذه النماذج وإن كانت مفيدة خاصة للباحث المبتدئ إلا أن البحث النوعي الجيد يحتاج أحيانا إلى خروج عن القوالب الجاهزة خاصة فيما يتعلق ببناء المعاني والخروج بالنظريات.

وهذه النماذج تتداخل، وربما تتكامل ومن الصعب التحديد الدقيق الحاسم لكل نموذج. وربما كان استخدام أكثر من نموذج في التحليل يجعل التحليل أكثر عمقا والنتائج أكثر إقناعا .

أدوات التحليل في النظرية المؤسسة

في النظرية المؤسسة الهدف الأساس هو بناء نظرية من خلال التحليل العميق للبيانات. وقد ذكرت كوربين (Corbin & Strauss, 2008) أسلوبين عامين للتحليل في النظرية المؤسسة، وهما التحليل الدقيق microanalysis حيث يتم تفصيل البيانات إلى

مكوناتها الدقيقة وإعطاء عنوان لكل مكوّن. وفي التحليل العام يتم إعادة تركيب هذه المكونات الدقيقة على شكل موضوعات محورية عامة ومجردة في سبيل بناء النظرية.

وللوصول إلى تحليل عميق للبيانات طرحت كوربن وستراوس (Corbin & Strauss, 2008) عددا من أدوات التحليل. وهذه الأدوات مع أنها مقترحة للنظرية المؤسسة إلا أنه يمكن توظيفها والاستفادة منها في جميع أنواع البحث النوعي. وفيما يلي شرح مختصر لهذه الأدوات:

١- طرح الأسئلة

فطرح الأسئلة يستدر المعلومة، ويطور الأجوبة ويكملها، ويجعل الباحث يفكر في أشياء جديدة، كما يجعله يألف البيانات ويقترب منها أكثر. وهذه الأداة مفيدة في كل مرحلة من مراحل التحليل، كما أنها مفيدة عندما يجد الباحث نفسه واجما أمام البيانات لا يستطيع أن يكتب عنها شيئا، فطرح الأسئلة والتفكير في كل الإجابات المحتملة يفتح المجال للباحث لطرق مستويات من الفهم ربما لم يتنبه لها.

وهناك أسئلة أساسية مثل: ماذا؟ و كيف؟ ومتى؟ و لماذا؟ وأين؟ فطرح هذه الأسئلة على أي معلومة يفتح أبوابا للتحليل العميق.

ولا يكتفي الباحث بالإجابة القصيرة بل يعمق السؤال وذلك بقرنه بسؤال آخر. فمثلا متى حدث ذلك؟ يقرنه بسؤال: لماذا؟ ولماذا قبل.. وليس بعد؟ ولو حدث قبل أو بعد ماذا كان سيحدث؟ ولماذا يذكر المستجيب أو المقابَل هذه العبارة بعد تلك العبارة دائما؟ ونحو ذلك.

كما أنه يمكن طرح أسئلة عن المدة والتكرار والتلازم والتحاشي، أو التركيز على كلمات معينة ونحو ذلك. وقدرة الباحث على طرح السؤال الجيد عنصر أساس في التحليل الجيد والعميق. كما يمكن طرح أسئلة مثل: "ماذا لو...؟" و" وإذا كان...؟".

٢- المقارنة

وهي أداة مهمة في التحليل، والمقارنة عادة توجد في أي بحث سواء بشكل ظاهر أو مضمر (Corbin & Strauss, 2008)، فيقوم الباحث بمقارنة كل حادثة تمر في البيانات بحادثة أخرى بحثا عن أوجه الشبة وأوجه الاختلاف. ومن فوائد هذه الأداة أنها تساعد الباحث على البحث في دقائق خصائص البيانات وعلى مستويات وأبعاد مختلفة، ولا تقف فقط عند ظاهر البيانات الخام (الأولية). فمما يقع فيه الباحث غير الخبير الوقوف عند وصف الحقائق كما هي، ولا يحاول أن يرقى بها لمستويات نظرية مجردة (Corbin & Strauss, 2008).

٣- البحث عن معانٍ متعددة للكلمات

من الأشياء التي تفيد في التحليل النوعي وفي بناء النظرية، أن لا يقف الباحث عند المعنى الذي يتبادر للذهن أولا، أو المتعارف عليه، بل يحاول أن يبحث عن معان جديدة للكلمة. وهذا لا يعني أن هذه الإستراتيجية يجب أن تطبق مع كل كلمة، بل يختار الباحث الكلمات التي يرى لها دلالة، ويحاول أن يتعرف على معانٍ جديدة لها. فكثيرا ما نظن أننا نعرف المعنى الذي يقصده المشارك في البحث، لكن بالتأمل قد تبدو لنا معانٍ أخرى.

٤- القلب

بهذه الأداة يقوم الباحث بقلب المعنى الذي لديه ظاهرا لباطن أو رأسا على عقب، بمعنى أنه ينظر إليه من زاوية مختلفة ومعاكسة تماما. وبعبارة أخرى، ينظر الباحث للمفهوم المعاكس للمفهوم الذي بين يديه بغية الوصول للخصائص الدقيقة له (Corbin & Strauss, 2008)، فمثلا الطاعة العمياء من الطلاب وعدم المناقشة في القرارات، قد يُنظر لها أنها نوع من الانضباط والاحترام، وقد يتم قلب هذا الفهم بحيث ينظر لها على أنها نوع من الاحتجاج الصامت والسلبية المقصودة في التعاطي مع أوضاع المدرسة.

٥- الإفادة من الخبرات الشخصية

من المفيد في أثناء التحليل الاستفادة من الخبرات الشخصية، وهذا محل جدل بين الباحثين؛ إذ إن منهم من يرى أن ذلك يجعل الباحث يغرق في الذاتية، بحيث لايتعدى تحليله الرؤى والانطباعات الشخصية مما يجره للتحيز، إلا أن كوربين وستراوس يريان أنه يمكن للباحث الإفادة من خبراته الشخصية دون الوقوع في إيثار الذاتية وذلك بالاعتماد على الخبرات الشخصية ليس على أنها التفسير الوحيد للبيانات، بل لجلب معاني أخرى محتملة (Corbin & Strauss, 2008). ومن الواضح أن الباحث خاصة الباحث المبتدئ يجب أن يستخدم هذه الأداة التحليلية بحذر، إذ ربما أنها تجره إلى الإفراط في الذاتية. إن تجارب الباحث في الحياة والتي تقع فنيا خارج نطاق بيانات البحث لأنها لم تجمع بنظام داخل سياق البحث، يمكن أن تستخدم كبرهان عند تناول مشكلة البحث سواء في قسم التحليل أو مناقشة النتائج (هوليداي، ٢٠٠٨).

٦- رفع الراية الحمراء

هذا الأداة يقصد بها التنبه للمعاني المسلمة لدى المشارك، بحيث لا يقع الباحث في فخ الخلط بين الدخول لعقل وقلب المشارك وبين النظر بعين تحليلية، فحيثما يسمع الباحث عبارات مثل "دائما.." أو " أبدا.." فيجب أن تعني له راية حمراء تحذيرية، ففي التحليل يجب أن يتنبه الباحث إلى أن ينظر بأبعاد متنوعة، فلا نكتفي بما يحدث "دائما" بل نبحث عن الذي يحدث "أحيانا" .. و"نادرا"، ولماذا؟ فبحسب كوربن وستراوس (Corbin & Strauss, 2008) فإن كلمات مثل "دائما" و "أبدا" كلمات تشير إلى أنه يجب أن ننظر عن كثب إلى البيانات، بحيث لا يسلم بصحة هذه العبارات، فمثلا قول الطالب (المعلم لا يسمح لنا بالحديث أبدا) لا يعني أن هذا صحيح، بحيث يتوقف عن البحث في البيانات عما يخالفه.

٧- التدقيق في اللغة

كثيرا ما تشير المفردات أو العبارات التي يستخدمها المشارك إلى معانٍ مهمة، مثل قول مدير المدرسة (مدرستي) أو قول الطالب (مدرستنا) أو (المدرسة) أو (مدرستهم)، فهذه كلمات يمكن أن يستنتج منها أشياء وتكون ذات دلالة في بناء النظرية. وعادة ما يستخدم الباحث النوعي في ترميز مثل هذه الكلمات ذات الدلالة (الرمزَ اللفظي) in-vivo code، ويُقصد به استخدام عبارة المشارك أو كلمته ذاتها رمزا عند تصنيف البيانات، فمثلا عندما يقول المعلم في سياق حديثه عن مدير المدرسة (مهمة المدير إصدار الأوامر...) فقد تكون عبارة (إصدار الأوامر) رمزا لفظيا يستخدمه الباحث في عملية الترميز بحيث يربط به كل العبارات والكلمات التي تدل على هذا المعنى، ففي هذه الحالة (الرمز) مأخوذ من عبارة المشارك نصا.

٨- النظر في المشاعر التي تبدو

أثناء المقابلة أو الملاحظة يطلع الباحث على كثير من المشاعر التي يبديها المشاركون، فمن المهم أثناء التحليل عدم إغفال هذه المشاعر إذ إنها جزء مهم من المعنى الذي نبحث عنه، فالمشاعر التي يبديها الطلاب عن المدرسة أو عن دراسة مواد معينة وتبدو من بعض عباراتهم أو من اختيارهم لكلمات خاصة ذات دلالة يجب التنبه لها في التحليل.

٩- البحث عن الكلمات التي تشير للوقت

فالتوقيت وترتيب الأحداث مهمان في تحليل البيانات، فالوقت مهم في وضع الأحداث في إطار زمني وتحديد الظروف التي تبرز فيها حالات معينة.

١٠- التفكير في الاستعارات والتشبيه (الأمثال)

فالتشبيه والاستعارة وضرب الأمثال قد تعطي عمقا أكثر للتحليل وتغني عن كثير من العبارة، وتوضح جوانب متعددة من الصورة، وقد توصل معاني يعجز المشارك عن البوح بها لفظيا.

١١- النظر في الحالات السالبة

الحالات السالبة هي الحالات الشاذة التي لا تتفق مع النسق السائد (Corbin & Strauss, 2008). فهي تمكن الباحث من تقديم تفسيرات بديلة، وفي الوقت نفسه تجعله أكثر ثقة عند الحديث عن الأنساق والأنماط المتكررة؛ إذ إنه يعرف الحالات التي تشذ عنها ويجد تفسيرا لها، أو على الأقل يبين أنه لا يجد تفسيرا لها.

هذه بعض الأدوات التي تفيد الباحث في التحليل خاصة في مجال بناء النظرية المجذرة، ومن المؤكد أن المجال مفتوح لإبداع أدوات أخرى، أو دمج أكثر من أداة. مع أنه لابد من التدرب على استخدام هذه الأدوات، فالاستخدام السطحي لها، الذي عادة يغلب عليه الطابع الآلي، قد لا يحقق الهدف في الوصول لتحليل عميق.

وفي كل هذه الأدوات يفضل أن يدرج الباحث اقتباسات ذات دلالة من نصوص كلام المشاركين في البحث وعينته، مع مراعاة عدم الإطالة بل الاقتصار على ما له دلالة عميقة ويثري تحليل الباحث.

ملخص الفصل

ناقش هذا الفصل علمية التحليل، والمراحل التي تتم بها تلك العملية في البحث النوعي، كما قدم الفصل عددا من النماذج المشهورة في تحليل البيانات النوعية، بالإضافة إلى التعريف ببعض الأدوات المستخدمة في التحليل.

أما الفصل التالي فيعرض طريقة كتابة تقرير البحث، بعد أن ينتهي الباحث من بحثه ويريد صياغة النتائج وتقديمها للقارئ بشكل منظم.

Open Kandil.com